الإنسان الكامل كما يتجلى عند ابن عربي وغيره

د. محمد محمود كالو، جامعة آدي يمان، تركيا، (باحث سوري)

muhmmedkalou@yahoo.com

الأخلاق الفاضلة المذكورة في القرآن الكريم، هي صفات الإنسان الكامل، والتي تجمعت برمَّتها في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لذلك كان إنساناً كاملاً، ولأهمية مفهوم (الإنسان الكامل) عند الصوفية جعل ابن عربي هذه الفكرة محور تعاليمه في كتبه ومؤلفاته، والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية، بل الإنسان الكامل في أدبيات ابن عربي هو الحد الجامع الفاصل بين الحق والعالم، ولما كانت نشأة صدر الدين القونوي الفكرية في كنف أستاذه ابن عربي، يحاول هذا البحث تبيين وجه الشبه بينهما في مفهوم الإنسان الكامل، مع المقارنة بهذا المفهوم عند عبد الكريم الجيلي المشابه لهما في عديد الوجوه؛ رغم التزامه كما يقول: بالكشف الصريح وتأييد مسائله بالخبر الصحيح.

الكلمات المفتاحية: الإنسان الكامل، ابن عربي ، النور المحمدي، مرآة الحق والحقيقة، مركز الدائرة.

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الإنسان الكامل يطلق على النور المحمدي في مرحلة تجسُّده وظهوره بصورة الإنسان الكامل خلال البعثة الظاهرية، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾[1] والمراد بالنور هنا: هو حضرة الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد تجسد بصورة البشر، فكان من حيث الظهور بشراً سوياً، تنطبق عليه خصائص العالَم، ومن الآيات الدالة على بشريته قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾[2]، ومن حيث الأصل أو الذات هو نور منزل، ولهذا وصفه بعضهم بصفة (بشر لا بشر)، ومن هنا قال البوصيري:

---

(1) سورة المائدة: ١٥

(2) سورة الكهف: ١١٠

محمد بشر وليس كالبشر　　　بل هو ياقوتة والناس كالحجر

فمبلغ العلم فيه أنه بشر　　　وأنــه خـير خـلق الله كـلـهم

ولأهمية مفهوم (الإنسان الكامل) عند الصوفية تتجلى هذه الفكرة عند ابن عربي في كتبه ومؤلفاته حيث يجعله محور تعاليمه، والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية، بل الإنسان الكامل في أدبيات ابن عربي هو الحد الجامع الفاصل بين الحق والعالم، فيجمع من ناحية بين الصورتين، يظهر بالأسماء الإلهية فيكون حقاً، ويظهر بحقيقة الإمكان فيكون خلقاً، ولما كانت نشأة صدر الدين القونوي الفكرية في كنف أستاذه ابن عربي، يحاول هذا البحث تبيين وجه الشبه بينهما في مفهوم الإنسان الكامل، مع المقارنة بهذا المفهوم عند عبد الكريم الجيلي المشابه لهما في عديد الوجوه؛ رغم التزامه كما يقول: بالكشف الصريح وتأييد مسائله بالخبر الصحيح.

الدراسات السابقة:

١- **الإنسان الكامل: محاورات في الفلسفة الصوفية**، محمد غازي عرابي، ١٩٨٧م.

٢- **الإنسان الكامل والحضارة العالمية في الرسالة المحمدية**، عبد المنعم محمد شقرف،١٩٨٨م.

٣- **الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي**، للدكتور محمود غراب، ١٩٩٠م.

٤- **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، عبد الكريم إبراهيم الجيلي، ١٩٩٧م.

٥- **الإنسان الكامل في الفكر الصوفي: عرض ونقد**، للدكتور لطف الله بن عبد العظيم خوجة، ٢٠٠٩م.

٦- **الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم**، للشيخ محمد متولي الشعراوي.

٧- **الإنسان الكامل وميزته النشورية**، بحث للأب ميشال الحايك، نشره في مجلة المشرق البيروتية عام ١٩٥٨م.

٨- **الإنسان الكامل في الإسلام**، بحوث لمستشرقين جمعها، عبد الرحمن بدوي، ١٩٧٦م.

٩- **مفهوم الإنسان الكامل في الفكر الصوفي**، بحث لناجم مولاي، نشره في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السابع جانفي ٢٠١٢م.

١٠-**الإنسان الكامل الصوفي: دراسة نقدية**، بحث للدكتور مصطفى عشوي، نشره في مجلة التجديد الماليزية في العدد السابع لسنة ١٩٩٩م.

بفضل هذه الدراسات وغيرها آتى هذا البحث أكله، ولولا ذلك لما قام البحث على سوقه، فلهؤلاء الباحثين السبق في توضيح هذه الفكرة المحورية الصوفية.

وميزة هذا البحث أنه يبرز الشبه من عدة وجوه في مفهوم الإنسان الكامل بين ابن عربي وتلميذه القونوي، وماذا يعني هذا المفهوم عند عبد الكريم الجيلي؟

علماً أن مفهوم الكمال لا يتأتى إلا من معرفة الإنسان بذاته، فأولى درجات الكمال هي معرفة الإنسان بنفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، أي من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله والعبودية له؛ عرف ربه بالقوة والربوبية والكمال المطلق.

فمن هو الإنسان الكامل؟ وما صفاته ومميزاته عند ابن عربي؟ وكيف تكون نشأته؟ وما أوصافه عند العارفين الآخرين؟ هذا ما سنبيِّنه من خلال هذه الدراسة التي جاءت بعد هذه المقدمة في مبحثين وخاتمة على الشكل التالي:

المبحث الأول: الإنسان الكامل: مفهوماً وتأصيلاً، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الإنسان الكامل.

المطلب الثاني: كيف يصف القرآن الكريم الإنسان الكامل؟

المبحث الثاني: الإنسان الكامل عند ابن عربي وغيره، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإنسان الكامل عند محيي الدين بن عربي.

المطلب الثاني: الإنسان الكامل عند صدر الدين القونوي.

المطلب الثالث: الإنسان الكامل عند عبد الكريم الجيلي.

الخاتمة وتشمل أهم النتائج.

سائلاً المولى جل جلاله التوفيق والسداد، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: الإنسان الكامل: مفهوماً وتأصيلاً

المطلب الأول: مفهوم الإنسان الكامل.

ليس المقصود الكلام عن جنس الإنسان، فالإنسان كما يقول ابن منظور: " الإِنسان: مَعْرُوفٌ"[١]، إنما المقصود معرفة دلالات الكلمة، ولها عند أهل اللغة معنيان:

المعنى الأول: الظهور: قال الأزهري: "وأصلُ الْإِنْس والأَنَس وَالْإِنْسَان: من الإيناس وَهُوَ الإبصار، يُقَال: أَنَسْتُهُ وأَنِسْتُه: أَي: أَبْصَرْته... وَقَالَ مُحَمَّد بن عَرَفَة الملقب بنفطويه وَكَانَ عَالما سمِّيَ الإنْسِيُّون إنْسيِّين لأَنَّهم يُؤْنسون، أَي: يُرَوْن، وسمِّيَ الجِنُّ جِنّاً لأَنهم مُجْتَنُّونَ عَن رُؤْيَة النَّاس، أَي: مُتَوارُون."[٢].

المعنى الثاني: النسيان: قال ابن منظور: "وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا، أَنه قَالَ: إِنما سُمِّيَ الإِنسان إِنساناً لأَنه عُهِدَ إِليه فَنَسيَ، قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: إِذا كَانَ الإِنسان فِي الأَصل إِنسيانٌ، فَهُوَ إِفْعِلانٌ مِنَ النِّسْيان، وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ لَهُ"[٣].

ولا مانع من أن يكون للكلمة أصلين على طريقة ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، على الرغم من تضاد المعنيين، فالنسيان يعني الخفاء ضد الظهور، فقد ورد في كلام العرب كلمات كثيرة لها معنيان متضادين، فيقال للسليم: اللديغ؛ تفاؤلاً بسلامته، وللأعمى: البصير، والقافلة: الرفقة الراجعة من السفر أو المبتدئة به.

واختلف العلماء في تعريف (الإنسان) **اصطلاحاً**: فبعضهم جعله المعنى القائم بالبدن، ولا مدخل للبدن في مسماه، وجعله آخرون الهيكل المحسوس، وهم جمهور المتكلمين.

قال الأشعري: "واختلف الناس في الإنسان ما هو: فقال أبو الهذيل: الإنسان هو الشخص الظاهر المرئي الذي له يدان ورجلان... وقال بشر بن المعتمر: الإنسان جسد وروح... وقال النظام: الإنسان هو الروح"[٤].

---

(١) **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ:٦/١٠.

(٢) **تهذيب اللغة**، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م: ١٣/٦٢.

(٣) **لسان العرب**: ٦/١١.

(٤) **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م: ١/٣٣١.

والذي يترجح هو القول بشر بن المعتمر، وذلك لأن ماهية الإنسان وحقيقته لا تكون بدون الجسد والروح، فقد نصنع تمثالاً من حجر على هيئة إنسان، لكن لا يمكن لنا أن نسميه إنساناً، لأنه لا روح فيه، وهكذا الأرواح التي بها الحياة، لا تسمى بمفردها إنساناً، حتى تتعلق بالبدن، فالإنسان مجموع الروح والجسد.

وبالمقارنة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي يمكننا تحديد مفهوم الإنسان بدقة، وإذا كانت صفة الإنسان الظهور؛ فإنها صفة مشتركة بين الإنسان والحيوان والنبات والجماد، لذا لا بد من الوقوف مع المعنى الثاني وهو النسيان، ولا يتصور نسيان إلا إذا سبقه حفظ، والحفظ لا يكون إلا بآلة العقل، فالذي ينسى يملك عقلاً، وبهذا نميزه عن الموجودات التي لا تعقل، لكن هذا أيضاً لا يكفي، إذ ليس الإنسان هو الوحيد الذي يعقل، فالملائكة تعقل، والجن يعقلون، إذن لا بدَّ من تعريف جامع مانع مستخلص من كلا المعنيين (الظهور والنسيان) واستبدلنا العقل بالنسيان، إذ كل من نسي يكون ذا عقل، وهنا يمكن أن نضع أيدينا على التعريف الحقيقي: (الإنسان: المرئي العاقل)، فبقولنا (المرئي): يخرج كل المستترات التي لا ترى، كالملائكة والجن، وخرج بقولنا (العاقل) جميع الموجودات التي لا تعقل[١].

فالمرئي متعلقه بالبدن، والعاقل: متعلقه بالبدن والروح، حيث العقل لا بد له من بدن وروح.

وقد ذكرت كلمة (الإنسان) في القرآن الكريم ٦٥ مرة، وعند التأمل لا نجد أن المراد الصورة الظاهرية للإنسان، بل انصب اهتمام القرآن على جميع أبعاد الإنسان الجسدية والروحية، المادية والمعنوية، الفكرية والعاطفية، الفردية والاجتماعية.

و(**الكامل**): صفة الكمال والتمام، قال ابن منظور: "الكَمَال: التَّمام، وَقِيلَ: التَّمام الَّذِي تَجَزَّأَ مِنْهُ أَجزاؤه"[٢]، فكلمة «التمام» على الدرجات التي يتطلّبها وجود جميع الأشياء اللّازمة لوجود شيء ما، أي إذا لم يوجد بعضها، فيكون الشيء في ماهيّته ناقصاً، فهو لم يُوجد كلُّه، بل وُجد بعضه. فهذا شيء قابل للزيادة والنقصان، كالعمارة التي يجب أن تُبنى على وفق خريطة معينة، وعندئذٍ يُقال: البناء تام.

أمّا «الكمال» فهو درجات يُمكن أن يصل إليها الشيء بعد أن أصبح تامّاً، درجة بعد درجة، وإذا لم يكن هذا الكمال، فالشيء موجود بتمامه، ولكن إذا أُضيف إليه الكمال، ارتفع درجة واحدة، إذ يعتبرون الكمال خطاً عموديّاً، والتمام خطاً أفقيّاً، لذا يقال: إنّ فلاناً قد كَمُل عقله، فهو كان عاقلاً قبل ذاك ولكن عقله قد ارتفع درجة

---

(١) **الإنسان الكامل في الفكر الصوفي**: **عرض ونقد**، للدكتور لطف الله بن عبد العظيم خوجة، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م: ٢٦.

(٢) **لسان العرب**: ٥٩٨/١١.

أخرى، فالإنسان الكامل معناه وجود إنسان تامّ في مقابل إنسان لم يزل أفقيّاً غير تامّ، وقد وردت كلتا الصفتين في آية قرآنية، قال الله تعالى: ﴿..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..﴾[١].

فمن تُرى هو الإنسان الكامل؟ أهوَ العابد، أو الزاهد، أو المجاهد، أو الحرّ، أو العاشق، أو العاقل؟

إن الإنسان الكامل هو ذاك الذي تربّت فيه كلّ هذه القيَم، ونَمَت إلى حدودها العليا، في انسجام وتناسب.

ولكن يرى بعضهم أن الكمال صفة لا تطلق على الإنسان إلا مجازاً، لأن الكامل على الإطلاق هو الله سبحانه وتعالى فقط.

المطلب الثاني: كيف يصف القرآن الكريم الإنسان الكامل؟

لما كان القرآن الكريم هو الكامل المكمل الذي لا يستدرك عليه، لقوله تبارك وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٢] فإننا سنجد صفات الكمال للإنسان في القرآن الكريم، لأنَّ فيه كمال العقيدة، وكمال العبادة، وكمال الأخلاق، والإنسان إذا تحلى بالأخلاق المرضية الكاملة بعد رمي الأخلاق الذميمة الناقصة أصبح إنساناً كاملاً، ولم يكن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إنساناً كاملاً إلا لأنه (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)[٣]، وأول صفة للإنسان الكامل في القرآن الكريم هي الخلافة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٤] فالإنسان الكامل هو الذي يقرأ القرآن ويتخلَّقُ بخُلُقِ القرآن، والقارئ للقرآن يجد فيه المدح لمن اتصف بتلك الأخلاق المرضية، والصفات الحميدة، فتارةً يمدحهم بأنهم هم المتقون، فيقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

وتارةً أخرى يمدحهم بأنهم هم الأبرار فيقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا. يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا. وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة:٣

(٢) سورة الأنعام: ٣٨.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، عن عائشة رضي الله عنها، برقم: (٢٤٧٤٧).

(٤) سورة البقرة:٣٠.

(٥) سورة آل عمران:١٣٣.

(٦) سورة الإنسان:٥–٨.

وتارةً يمدحهم بأنهم هم الأولياء، فيقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[١].

وتارةً يمدحهم بأنهم هم المتقون المحسنون، فيقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٢].

وتارةً يمدحهم بأنهم هم أولوا الألباب، فيقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣].

وتارةً يمدحهم بأنهم هم خير البرية، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[٤].

وتارةً يمدحهم بأنهم هم المفلحون، فيقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[٥].

وتارةً يمدحهم بأنهم هم المخبتون، فيقول: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٦].

وتارةً يمدحهم بأنهم هم الصالحون، فيقول: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٧].

وتارةً يمدحهم بأنهم هم المؤمنون، الخائفون، القانتون، المقربون، الخاشعون، السائحون، التائبون، العابدون، المقسطون، الصادقون، الصابرون، الذاكرون، المهتدون، وأنهم هم عباد الرحمن.

---

(١) سورة يونس:٦٢-٦٣.

(٢) سورة الذاريات:١٥-١٦.

(٣) سورة آل عمران:١٩٠-١٩١.

(٤) سورة البينة:٧.

(٥) سورة المؤمنون:١-٥.

(٦) سورة الحج:٣٤-٣٥.

(٧) سورة آل عمران:١١٤.

فكل هذه الأخلاق الفاضلة، والصفات الحميدة؛ التي ذكرها القرآن الكريم، هي صفات الإنسان الكامل، والتي تجمعت برمَّتها في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لذلك كان إنساناً كاملاً.

المبحث الثاني: مفهوم الإنسان الكامل عند ابن عربي وغيره.

المطلب الأول: الإنسان الكامل عند محيي الدين بن عربي[1]

تتجلى فكرة الإنسان الكامل عند ابن عربي في كتبه ومؤلفاته حيث يجعله محور تعاليمه، والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية، بل الإنسان الكامل في أدبيات ابن عربي هو الحد الجامع الفاصل بين الحق والعالم.

"إن تعبير "الإنسان الكامل" لم يكن له وجود في الآداب الإسلامية حتى القرن السابع الهجري ولكنه اليوم مستعمل حتى في أوربا، وأول من استعمل هذا التعبير في عالم الإسلام بشأن الإنسان وطرح موضوعاً باسم الإنسان الكامل، هو العارف المعروف (محي الدين العربي الأندلسي الطائي)"[2].

وقيل: بأن هذا اللقب أول ما وردت في رسائل إخوان الصفا، ولكننا في الحقيقة لا نجد في رسائل إخوان الصفا ذكراً للإنسان الكامل، وإنما المذكور في رسائل إخوان الصفا هو (السيد الكامل) واتحاد المعنى لا يسوغ القول بأنهم أول من أطلق مصطلح (الإنسان الكامل)[3].

تقول الدكتورة سعاد الحكيم، وهي المتخصصة في دراسة فكر ابن عربي، أن: "مقولة الإنسان الكامل تكاد تكون الفكرة الرئيسة الوحيدة، التي دارت عليها معظم نصوص محي الدين بن عربي على كثرتها، وهي تربو على ثلاثمائة[4]، فلا يكاد يخلو منها كتاب أو رسالة او حديث، وقد أشار إليها بجملة مصطلحات، أحصيت في مطلع بحثي لمادة (الإنسان الكامل) في (المعجم الصوفي) ما يزيد على أربعين مرادفاً لها، أهمها أن الإنسان الكامل هو:

---

(١) **محيي الدين ابن عربي**: المتصوف الكبير، لقب بالشيخ الأكبر، ولد بمرسية في الأندلس في شهر رمضان الكريم عام٥٥٨ هـ الموافق١١٦٤ م، وتوفي في دمشق عام٦٣٨ هـ الموافق١٢٤٠ م، ودفن في سفح جبل قاسيون، من مصنفاته: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وترجمان العشاق (ديوان شعر).

(٢) **الإنسان الكامل**، تأليف الأستاذ مرتضى المطهري، ترجمة جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م: ١١.

(٣) **الإنسان الكامل في الفكر الصوفي: عرض ونقد**، لطف الله خوجه: ١٤٣.

(٤) اختلف في عدد كتب ابن عربي، فذكروا أنه: "قد ألف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة على حد قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢، أو خمسمائة كتاب ورسالة على حد قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب نفحات الأنس، أو أربعمائة =

النسخة الجامعة، المختصر الشريف، حقيقة الحقائق، كل شيء، أصل العالم، مركز الدائرة، المفيض[١]، روح العالم، نور محمد صلى الله عليه وسلم، عيد الجمع والوجود، مرآة الحق والحقيقة.

ولعل السبب في كثرة المترادفات يرجع إلى ثقافة ابن عربي ونزعته التوفيقية من جهة، ومن جهة ثانية إلى إدراكه العميق لهذه المرتبة الكونية، التي هي الإنسان الكامل، واستطاعته رؤيتها في نصوص الآخرين وتصوراتهم، حتى لو كان ظهورها بألفاظ وتعابير مختلفة"[٢].

واختصاص بن عربي بهذا المصطلح لا يعني تفرده به، بل عامة الصوفية يعتقدون بمضمون هذا المصطلح، وربما ذكروها بأسماء أخرى، فالأقدمون أكثروا من استخدام كلمة (الولي) وهي لا تختلف كثيراً عن معنى الإنسان الكامل، وبعضهم استخدم كلمة (القطب) وغيرهم استعمل (النور المحمدي) أو (الحقيقة المحمدية) وغيرها.

قال ابن عربي: "الإنسان الحيوان خليفة الإنسان الكامل وهو الصورة الظاهرة التي بها جمع حقائق العالم، والإنسان الكامل هو الذي أضاف إلى جمعية حقائق العالم حقائق الحق التي بها صحت خلافته"[٣].

وقال أيضاً: "الكمال في الإنسان الكامل بالفعل، وهو في العقل الأول بالقوة، وما كان بالقوة والفعل أكمل في الوجود ممن هو بالقوة دون الفعل"[٤].

والكمال الذي يوصف به الإنسان هنا، لا يعني ما قد يتبادر إلى الذهن من مدلولات أخلاقية، من فضيلة وخير وما إلى ذلك، وإنما يتضمن في المقام الأول، "مدلولات أنطولوجية (وجودية)، وغنوصيولوجية (معرفية)، ونظرية (الإنسان الكامل) هي في الحقيقة نظرية في الكلمة (Logos)، ويمكن التمييز فيها بين جوانب رئيسية ثلاثة: ١) أنطولوجي، ٢) كسمولوجي (كوني)، ٣) عرفاني- نبواتي.

= كتاب كما يقول الشعراني في اليواقيت والجواهر" [انظر **مقدمة فصوص الحكم**، بقلم أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت:٥].

(١) **المفيض**: اسم من أسماء النبي عليه السلام، لأنه المتحقق بأسماء الله ومظهر إفاضة نور الهداية عليهم وواسطتها. [**معجم اصطلاحات الصوفية**، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م: ١٠٧].

(٢) **عودة الواصل**: **دراسات حول الإنسان الصوفي**، سعاد الحكيم، مؤسسة دندرة للدراسات، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م: ١٣٦.

(٣) **الفتوحات المكية**، محي الدين بن عربي، دار الكتب العربية الكبرى، مصر (د.ت): ٤٣٧/٣.

(٤) **المصدر السابق**: ٤٣٠/٣.

فعلى **الصعيد الأول**: الأنطولوجي (الميتافيزيقي) يمثل الإنسان الكامل (الذي يسمى أيضاً "الإنسان الكلي") "الكلمة الجامعة". وهذه الكلمة بدورها ترادف "الحقيقة الكلية" أو "حقيقة الحقائق"[١].

ويميز ابن عربي بين أربعة أنواع من المعلومات[٢]:

١- الحق تعالى، وهو ما يتصف بالوجود لذاته، وما يشكل أصل الموجودات كلها، وهو الموصوف (بالوجود المطلق) لأنه سبحانه ليس معلولاً لشيء ولا علة بل هو موجود بذاته، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده، والعلم بحقيقة ذاته ممنوع لأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣].

٢- الحقيقة الكلية التي هي للحق وللعالم، لا توصف بالوجود ولا بالعدم، ولا بالحدوث والقدم، وهي قديمة في القديم إذا وصف بها، حادثة في المحدث إذا وصف بها، ولكنها لا تقبل التجزؤ، ليس فيها كل ولا بعض، فمن هذه الحقيقة وجد العالم بواسطة الحق سبحانه وتعالى، وإن أردت مثالها حتى يقرب إلى فهمك فانظر إلى (**العودية**) في الخشبة والكرسي والمحبرة والمنبر والتابوت، وكذلك (**التربيع**) وأمثاله في الأشكال في كل مربع مثلاً من بيت وتابوت وورقة، وكذلك (**الألوان**) كبياض الثوب والجوهر والكاغد والدقيق والدهان من غير أن تتصف البياضية المعقولة في الثوب بأنها جزء منها فيه، بل حقيقتها ظهرت في الثوب ظهورها في الكاغد.

٣- العالم كله الأملاك والأفلاك وما تحويه من العوالم والهواء والأرض وما فيهما من العالم وهو الملك الأكبر.

٤- الإنسان الخليفة الذي جعله الله في هذا العالم المقهور تحت تسخيره، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[٤].

وهذه وغيرها من الحقائق الكلية المعقولة "تتربع على هيئة هرم، قمته (حقيقة الحقائق)... وفي كل طبقة من طبقات هذا الهرم يمكن النظر إلى الحقائق الواقعة فيها على أنها تراكيب من الحقائق الأعلى منها، أي الأكثر عمومية

---

(١) **الفلسفة العربية الإسلامية**: **الكلام والمشائية والتصوف**، د. ارثور سعدييف، د.توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠: ٣٣٦.

(٢) **الفتوحات المكية**: ١/١٨-١٩.

(٣) سورة الشورى: ١١.

(٤) سورة الجاثية: ١٣.

وكلية، فمن ائتلاف حقيقة الشكل والكم نحصل على المثلث والمربع والخماسي ألخ، وعلى نحو مماثل، يمكن اعتبار كل شيء مفرد في العالم على أنه جملة من الحقائق الكلية المؤتلفة، ففي المحبرة مثلاً، تأتلف العودية والاستطالية والتربيعية والكمية وغير ذلك من الحقائق، وبهذا المعنى تكون الحقيقة لكلية أصل كافة الموجودات وهيولاها"[١].

والإنسان الكامل على **الصعيد الثاني**: الكسمولوجي (الكوني) وهو العالم بما فيه الإنسان، والعالم كتجسد للإنسان الكامل، للحقيقة الكلية، كامل، بديع، ليس في الإمكان أبدع منه، وهو يتطور ليبلغ أوج كماله في الجنس البشري، والإنسان أكثر كائنات العالم كمالاً، لأنه صنع على صورة الإله، وهنا يكون الإنسان كاملاً بحد ذاته، لأنه "مختصر" (أو"نسخة") شريفة من الكون كله، يجمع في ذاته كل ما في العالم من أشياء، بدءاً من العناصر الأربعة وحتى المعادن والنباتات والحيوانات، وبذلك يكون الإنسان "عالماً صغيراً" والعالم "إنساناً كبيراً"[٢].

ويعبِّر ابن عربي عن هذه الفكرة بلغة رمزية لاهوتية فيقول: "لما شاء الحق سبحانه من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت: أن يرى عينه، في كون جامع يحصر الأمر كله لكونه متصفاً بالوجود، ويظهر به سره إليه، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة؛ فإنه يظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور فيه مما لم يكن يظهر له من غير وجود هذا المحل ولا تجلّيه له... فالأمر كله منه، ابتداؤه وانتهاؤه، ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[٣] كما ابتدأ منه، فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة، وكانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة التي هي صورة العالم المعبَّر عنه في اصطلاح القوم (بالإنسان الكبير)"[٤].

ومن هنا سمي إنساناً وخليفة، لأنه للحق بمنزلة إنسان العين من العين؛ الذي يكون به النظر والبصر، ولهذا سمي إنساناً لأن الحق به ينظر إلى خلقه فيرحمهم، ولأنه من العالم كفص الخاتم من الخاتم، وهو محل النقش والعلامة التي بها يختم الملك على خزانته، ولهذا سماه خليفة لأنه تعالى الحافظ به خلقه كما يحفظ الختم الخزائن، فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه، فاستخلفه في حفظ الملك، فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل[٥].

---

(١) **الفلسفة العربية الإسلامية: الكلام والمشائية والتصوف**: ٣٣٦-٣٣٧.

(٢) **المصدر السابق**: ٣٣٨.

(٣) سورة هود: ١٢٣.

(٤) **فصوص الحكم**، محيي الدين بن عربي، تعليق:أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م: ٤٨-٤٩.

(٥) ملخص من **فصوص الحكم**، لابن عربي: ٥٠.

"والإنسان الكامل وإن كان مرادفاً للجنس البشري في معظم أقوال ابن عربي، لا يصدق في الحقيقة إلا على أعلى مراتب الإنسان وهي مرتبة الأنبياء والأولياء، وأكمل هؤلاء على الإطلاق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لا محمد النبي المبعوث، بل الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدي، فإنه المظهر الكامل للذات الإلهية والأسماء والصفات"[١].

يقول الفخر الرازي: "فَالْوَلِيُّ هُوَ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَقْوَى عَلَى التَّكْمِيلِ، وَالنَّبِيُّ هُوَ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ الْمُكَمِّلُ، ثُمَّ قَدْ تَكُونُ قُوَّتُهُ الرُّوحَانِيَّةُ النَّفْسَانِيَّةُ وَافِيَةً بِتَكْمِيلِ إِنْسَانَيْنِ نَاقِصَيْنِ وَقَدْ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ فَيَفِي بِتَكْمِيلِ عَشَرَةٍ وَمِائَةٍ وَقَدْ تَكُونُ تِلْكَ الْقُوَّةُ قَاهِرَةً قَوِيَّةً تُؤَثِّرُ تَأْثِيرَ الشَّمْسِ في العالم... وَذَلِكَ مِثْلُ رُوحِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[٢].

فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما ظهرت دعوته؛ كان في وقت ظهوره العالَم مملوءاً من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان فقلَّب أكثر أهل العالم من الشرك إلى التوحيد.

ويوضح الصوفية فكرة (الحقيقة المحمدية) التي ليس الأنبياء إلا تجليات مختلفة لها، بصورة دائرة الدوائر، فيقول داود بن محمود القيصري: "النبوة دائرة مشتملة على نقط في محيطها، وكل نقطة منها مركز دائرة برأسها، فخاتم النبيين المرسلين محمد- صلوات الله عليهم أجمعين-، صاحب هذه الدائرة الكلية، لذلك كان نبياً وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – كنقطة محيطها"[٣].

ويعلل ابن عربي ذلك بأن الإنسان هو روح العالم فيقول: "لأن الإنسان روح العالم، والعالم الجسد، فبالمجموع يكون العالم كله هو الإنسان الكبير والإنسان فيه، وإذا نظرت في العالم وحده دون الإنسان وجدته كالجسم المسوَّى بغير روح، وكمال العالم بالإنسان مثل كمال الجسد بالروح"[٤].

ويذكر ابن عربي أن الله تعالى خلق الإنسان الكامل على صورته ليكون دليلاً على معرفة الله بالمشاهدة، فقال: "خلق الإنسان الكامل على صورته ونصبه دليلاً على نفسه لمن أراد أن يعرفه بطريق المشاهدة لا بطريق الفكر الذي هو طريق الرؤية في آيات الآفاق وهو قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ ثم لم يكتف بالتعريف حتى

---

(١) **مقدمة فصوص الحكم**، بقلم: أبو العلا عفيفي: ٣٧.

(٢) **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ: ١٩/٧٥.

(٣) **مجموعة رسائل معرفية، أو رسائل القيصري**، داود بن محمود القيصري، تعليق: عاصم إبراهيم الكيالي، كُتَّاب ناشرون، بيروت، (د.ت) :٤٩-٤٨.

(٤) **الفتوحات المكية**: ٢/٦٧.

أحال على الإنسان الكامل، حتى قال: ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ وهنا قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾[١] إشارة إلى ما خلق عليه الإنسان الكامل الذي نصبه دليلاً أقرب على العلم من طريق الكشف والشهود"[٢].

ولكي يبرهن ابن عربي على أن وجود (الإنسان الكامل) مع الله تعالى أزلاً وأبداً؛ جاء بعدة أمثلة، منها:

الكنز: والمقصود به ما تضمنه الأثر الصوفي: (كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ فَبِي عَرَفُونِي)[٣]، فالحق جل جلاله كان كنزاً مخفياً في صورة الإنسان الكامل فلما أراد أن يظهر كنزيّته أظهر الإنسان الكامل، ليظهر معه صورته، قال ابن عربي: "فاعلم أنك العين المقصودة، فما وجدت هذه الأسباب إلا بسببك، لتظهر أنت فما كانت مطلوبة إلا لأنفسها، فإن الله لما أحب أن يعرف لم يمكن أن يعرفه إلا من هو على صورته، وما أوجد الله على صورته أحداً إلا الإنسان الكامل، لا الإنسان الحيواني، فإذا حصل حصلت المعرفة المطلوبة، فأوجد ما أوجد من الأسباب لظهور عين الإنسان الكامل، فاعلم ذلك"[٤].

والذي يظهر أنه لا أسبقية هنا، فإذا كان الإنسان الكامل ثابتاً في العدم قبل الوجود، وإنما ظهوره بظهور كنز الحق؛ فذلك يدل على أنه مع الله أزلاً، ومن ثم يصح أن يكون الحق شبه الإنسان الكامل.

المثال الثاني الذي مثّل به ابن عربي **الظل**: وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[٥] ليدلل على لزوم الظل (الإنسان الكامل) للشمس (الله)، فإذا برز شخص في الشمس ظهر ظله ومُدَّ في الأرض، وإلا فالظل خفي معقول فيه، وهكذا مثال الإنسان الكامل مع الصورة الإلهية، فإذا أراد الله أظهره ومده كالظل، وإلا جعله ساكناً، فلا يظهر في الوجود الحسي إلا الله وحده، يقول ابن عربي:

"واعلم أن الإنسان لما كان مثال الصورة الإلهية كالظل للشخص الذي لا يفارقه على كل حال غير أنه يظهر للحس تارة ويخفى تارة، فإذا خفي فهو معقول فيه، وإذا ظهر فهو مشهود بالبصر لمن يراه، فالإنسان الكامل في الحق

---

(١) سورة فصلت:٥٣.

(٢) **الفتوحات المكية**: ٢٨١/٣.

(٣) ليس بحديث، وصحح معناه ملا عليّ القاري رحمه الله فقال: "وَهَذَا الْمَعْنَى يُصَحِّحُ مَعْنَى مَا يُنْقَلُ حَدِيثًا، وَلَمْ يَصِحَّ لَفْظًا (كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِأَنْ أُعْرَفَ)، وَلِذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] أَيْ: لِيَعْرِفُوا" [**مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، علي بن (سلطان) محمد القاري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م: ١٩٩/١].

(٤) **الفتوحات المكية**: ٢٦٦/٣.

(٥) سورة الفرقان:٤٥.

معقول فيه كالظل إذا خفي في الشمس فلا يظهر، فلم يزل الإنسان أزلاً وأبداً ولهذا كان مشهوداً للحق من كونه موصوفاً بأن له بصراً فلما مدَّ الظل منه ظهر بصورته ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾[1] أي ثابتاً فيمن هو ظله فلا يمده فلا يظهر له عين في الوجود الحسي إلا لله وحده فلم يزل مع الله ولا يزال مع الله فهو باقٍ ببقاء الله، وما عدا الإنسان الكامل فهو باقٍ بإبقاء الله"[2].

ويذكر ابن عربي أن الإنسان الكامل أعظم مخلوق رحيم فيقول: " فقال أهل الشهود كفانا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[3] فذكر الكيف والظل لا يخرج إلا على صورة من مده منه، فخلقه رحمة، فمدَّ الظل رحمة واقية، فلا مخلوق أعظم رحمة من الإنسان الكامل"[4].

المثال الثالث: **الحبة** إذا دفنت في الأرض وانفلقت واعطت ساقاً وأوراقاً وحبوباً كالأصل، فالحبة من هذه الحبات هي على صورة الحبة التي خرجت منها بلا فرق، سوى أن تلك غيب، وهذه شهادة، فهذه الحبة الظاهرة برزت وقد كانت مختزنة في الحبة الغائبة، وذلك مثال الإنسان الكامل برز فصار مشهوداً من الحق الغائب، فله كل صفاته، فما كان في بالقوة صار فيه بالفعل، قال ابن عربي في ذلك:

"علم اختزان البزرة والنواة والحبة وما يظهر منها إذا بزرت في الأرض، وكيف تدل على علم خروج العالم من الغيب إلى الشهادة؟ لأن البزرة لا تعطي ما اختزن الحق فيها إلا بعد دفنها في الأرض، فتنفلق عما اختزنته من ساق وأوراق وبزور أمثالها، من النواة نوى، ومن الحبة حبوب، ومن البزرة بزور، فتظهر عينها في كثير مما خرج عنها، فتعلم من هذا: ما الحبة التي خرج منها العالم؟ وما أعطت بذاتها فيما ظهر من الحبوب، ولماذا يستند ما ظهر منها من سوى أعيان الحبوب؟ فلولا ما هو مختزن فيها بالقوة ما ظهر بالفعل، فاعلم ذلك"[5].

فهذه الأمثلة الثلاثة برأي ابن عربي تشير إلى أزلية الإنسان الكامل مع الله تعالى، فهو الخليفة لتطابق الصورة التي خلقه الله تعالى عليها.

أما **الصعيد الثالث**: العرفاني- النبواتي، فتمثل الكلمة، أو الإنسان الكامل، "الحقيقة المحمدية" التي يعني بها حكماء الصوفية؛ مبدأ كلِّ وحي وكشف، وأصل كل معرفة باطنية، وكل شيء في الكون هو عند الشيخ الأكبر

---

(١) سورة الفرقان:٤٥.

(٢) **الفتوحات المكية**: ١٨٧/٣.

(٣) سورة الفرقان:٤٥.

(٤) **الفتوحات المكية**: ٢٨١/٣.

(٥) **الفتوحات المكية**: ٣٦٩/٣.

وأتباعه "كلمة" من كلمات الله، بحيث يكون العالم كله "قرآن كبير"، وهذا التصور للعالم كالقرآن الكبير يتيح لابن عربي مد جسر من الكلمة الكلية إلى النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] فما النبي محمد في الحقيقة إلا القرآن نفسه"[١].

يقول ابن عربي: "لما سئلت عائشة [رضي الله عنها] عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: كان خلقه القرآن، وإنما قالت ذلك لأنه أَفْرَدُ الخلق، ولا بد أن يكون ذلك الخلق المفرد جامعاً لمكارم الأخلاق كلها، ووصَفَ الله ذلك الخلق بالعظمة كما وصف القرآن في قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[٢] فكان القرآن خلقه، فمن أراد أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لم يدركه من أمته فلينظر إلى القرآن، فإذا نظر فيه فلا فرق بين النظر إليه وبين النظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكأن القرآن انتشأ صورة جسدية يقال لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، والقرآن كلام الله، وهو صفته، فكام محمد صفة الحق تعالى بجملته، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله لأنه لا ينطق عن الهوى فهو لسان حق"[٣].

وهذا ما يعكس أن الولاية عند ابن عربي، غنوص عرفان، معرفة باطنية، وليس تقوى وورعاً.

وراح بعض مفكري الصوفية يستبعدون (الإنسان الكامل) من لوحة الحضرات الخمس الأكثر شيوعاً:

١- حضرة الأحدية، أو الذات الإلهية.

٢- حضرة الواحدية، أو الأسماء والصفات الإلهية، وهي مرتبة الألوهية؛ وهنا تندرج "الأعيان الثابتة" التي هي مظاهر الأسماء الإلهية.

٣- حضرة الأفعال، أو الربوبية، وهي عالم العقول والنفوس المجردة، التي هي "المدبرات الكلية" للكون.

٤- حضرة المثال والخيال، وهي عالم التنزلات المثالية المتجسدة المتشكلة دونما مادة.

٥- حضرة الحس والمشاهدة، أو الملك، وهي العالم المادي.

---

(١) **الفلسفة العربية الإسلامية: الكلام والمشائية والتصوف**: ٣٣٩.

(٢) سورة الحجر:٨٧.

(٣) **الفتوحات المكية**: ٤/٦٠-٦١.

ودرجت الأدبيات الصوفية على تسمية هذه المراتب الخمس بالألفاظ التالية: الهاهوت، اللاهوت، الجبروت، الملكوت، الناسوت، وهذه الحضرات كلها تجتمع في (الإنسان الكامل)"[١].

المطلب الثاني: الإنسان الكامل عند صدر الدين القونوي[٢]

يستهل صدر الدين القونوي بحثه عن الإنسان الكامل في كتابه (مفتاح الغيب) متسائلاً: ما حقيقة الإنسان الكامل؟ وممَّ وجد؟ وفيمَ وجد؟ وكيف وجد؟ ومن أوجده؟ ولِمَ وجد؟وما غايته؟ وما الذي يراد منه مطلقاً من حيث الإرادة الكلية؟[٣] ثم يجيب عن هذه الأسئلة كلها تباعاً.

ويرى القونوي أن إيجاد الإنسان الكامل رهن بالأمر الإلهي المعني بالإيجاد، ذلك الأمر المعني بإبراز المعلومات من العالم الغيبي إلى العالم العيني على المقتضى العلمي، وهو بذلك يرجع فكرة الكمال في أصلها إلى وجود أمر إلهي، فإذا صدر الأمر الإلهي المعني بالكمال إلى حقيقة الإنسان الكامل العلمية استجابت تلك الحقيقة للأمر وتحققت بالوجود.

وهكذا تكون نشأة الإنسان الكامل رهن بطهارة الأصل وكمال الرتبة، فتبدأ النشأة بالأمر الإلهي عندما يقع في العناصر الطبيعية فيتخذ طريقه خلالها متنقلاً بالتدريج في الرتبة من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى، فيزهر أولاً في أكمل نوع من أنواع النباتات التي تتناسب مع درجته وروحانيته ومقامه، فيتناول النباتَ أحد الأبوين، فإذا تحول هذا الغذاء إلى دم ثم مني ارتقى من الرتبة النباتية والجمادية إلى الرتبة الحيوانية، ثم ينتقل هذا الأمر من الصلب إلى الرحم، فيكون إيذاناً بظهور حكم الاسم الجامع، أو ميلاد اسم كامل، يقول القونوي: "يظهر أولاً في أكمل نوع من النبات الموجود في الموضع المناسب لروحانيته ومقامه، أو في الموضع الذي هو مسكن أبويه، فيفيض الحق له من شاء، فيأخذ ذلك النبات مثلاً فيوصله إلى الأبوين أو أحدهما، أو يأخذه الأبوان ابتداء، فيتناولان صورة ذلك النبات في الوقت المناسب لمرتبته ومرتبة الأمر الذي جاء مدرجاً فيه، وبموجب حكم الاسم الدهر في العوالم التي مرَّ بها حال المرور، ثم يستحيل ذلك النبات غذاء كيلوساً ثم دماً ثم منياً متصلاً بجسد الأبوين –اتصال ارتقاء من الرتبة النباتية

---

(١) **الفلسفة العربية الإسلامية: الكلام والمشائية والتصوف**: ٣٣٥.

(٢) **صدر الدين القونوي**: هو أبو المعالي محمد بن إسحاق القونوي، نسبة إلى مدينة قونية التركية لأنها كانت مسقط رأسه، كان صديقاً لمحيي الدين بن عربي التقى به بمكة أثناء أداء فريضة الحج، زار مصر، وعاش أكثر عمره متردداً بين قونية ودمشق، توفي بقونية ويرجح وفاته في سنة ٦٧٣هـ، من مصنفاته: مفتاح الغيب، والنفحات الإلهية، والنصوص في تحقيق الطور المخصوص، والفكوك.

(٣) **مفتاح الغيب**، لأبي المعالي صدر الدين القونوي، وشرحه: مصباح الأنس لمحمد بن حمزة الفناري، تحقيق: محمد خواجوي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ: ١٠٦.

والجمادية إلى الرتبة الحيوانية– حتى يتعين وينتقل مادة صورته من الصلب إلى الرحم، وذلك أول التعين الجمعي الظاهر منه، وأول ظهور حكم الاسم الجامع فيه بطريق الأغلبية"[١].

وهكذا يتحول الأمر من مرتبة الغيب إلى مرتبة الشهادة وهو الميلاد الفعلي، وهو تأويل القونوي لقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٢]، وقوله جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٣]، ثم قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[٤]، والآية الأخيرة يتأوّلها القونوي على اعتبار أن المستقر هو صلب الرجل حيث يستقر الأمر الإلهي، والمستودع: هو رحم المرأة المعني بالمحافظة على الأمر الإلهي الذي ينتقل من المستقر إلى المستودع حيث ينشأ الكامل ويبرز من الغيب إلى الشهادة، ويستمر في الترقي حتى يبلغ درجة الكمال، فيقول: "فمبدأ الاستقرار في الرحم وما قبل ذلك فمختص بمقام الاستيداع... ثم ينشأ في الرحم وينتقل على الوجه المعلوم المذكور في علم الرسوم إلى أن يبرز في عالم الشهادة، ويترقى حتى يبلغ درجة الكمال"[٥].

ويحدد القونوي عمراً زمنياً يراه مناسباً لتكامل نشأة الإنسان الكامل في الأربعين من عمره، فإن اكتمل قبل ذلك كان كماله نسبياً، وإن اكتمل بعد هذا بعام واحد كان هذا يعني وصوله إلى تمام كماله، فيقول القونوي: "فالكامل ينتهي بكامل نشأته في أول يوم أو ساعة من سنة أربعين أو سنة إحدى وأربعين من سني عمره، وقد ينتهي قبل ذلك إلى درجة هي كمال نسبي"[٦].

وتوضح إجابات القونوي عن بعض أسئلته أن شأن حقيقة الإنسان الكامل كشأن جميع الموجودات، فهو إنسان حقيقة غيبية علمية من ناحية، ومن ناحية أخرى له مظهره الشهودي، فهو الجامع لعالم الغيب وعالم الشهادة، لذلك يقول القونوي: "إن الإنسان كان عيناً، فصار وصفاً، ثم صار خلقاً وسوى، حتى وصف سرُّ الحق المودع فيه بصفات الخلق وسمي باسمه"[٧].

---

(١) **مفتاح الغيب**، لأبي المعالي صدر الدين القونوي، وشرحه: ١٠٧.

(٢) الحج:٥.

(٣) آل عمران:٦.

(٤) الأنعام:٩٨

(٥) **مفتاح الغيب**: ١٠٧.

(٦) **مفتاح الغيب**: ١٠٦.

(٧) **صدر الدين القونوي وفلسفته الصوفية**، نقلاً عن **رسالة التوجه الأتم الأعلى**، نسخة خطية، رقم ١٣١٨م، بمكتبة طلعت بدار الكتب المصرية، ورقة(٦٤): ٢٠٩.

والجانب الغيبي من الإنسان الكامل يستند إلى اسم (الباطن) من أسماء الحق، كما يستند الجانب الغيبي منه إلى اسم (الظاهر) من اسم الحق، فيقول القونوي: " وإلى هذين الاسمين المذكورين – أعني الظاهر والمفصل – تستند صور العالم المعبر عنه بعالم الشهادة، كاستناد ما خفي من العالم إلى الاسم الباطن والمدبر"[١].

ونرى أن القونوي اختص الإنسان الكامل بمرتبة (أحدية الجمع) وسميت بذلك لجمعها الأحدية والواحدية[٢]، وهي مرتبة الذات المختصة بحقيقة الحقائق والحقيقة الإنسانية الكمالية، يقول القونوي: "وأما المختص بالإنسان من كونه إنساناً –إنْ كان من الكمَّل– فله أحدية الجمع"[٣].

وهكذا يصل القونوي بالإنسان الكامل إلى الحد الذي يسبغ عليه معنى إلهياً، وهو ترديد لما قدمه ابن عربي من أن الإنسان الكامل "كون جامع"[٤]، أو هو "عين جلاء مرآة العالم"[٥].

ويرى القونوي أن للإنسان الكامل وظائف ثلاث:

أ– **الوظيفة الوجودية:** ومن المهم أن نفهم أن الوظيفة الوجودية للإنسان الكامل عند القونوي متمثلة في وجهيها: الميتافيزيقي الغيبي، والإمكاني الكوني، إذ أن ارتقاء الإنسان عبر مراتب الأكملية ينتهي به إلى مرتبة جامعة لكل المراتب، بل يتجاوز مراتب الكمال ليصل إلى مرتبة يتولى فيها الحق عنه القيام بكل وظائفه، فيقول القونوي:

"فإن ارتقى [أي الإنسان الكامل] بعد التحقق بالكمال في درجات الأكملية، وجاوز مقام الكمال من حيث تعينه، حجبه الحق بذاته عن خلقه، وقام عنه بسائر وظائفه ولوازمه"[٦].

ويرى القونوي أن الإنسان الكامل يستطيع الاجتماع بمن شاء من الأحياء أو الأموات في كل زمان ومكان، طوعاً أو كرهاً، لأنه يجمع في حقيقته الجامعة كل العوالم، فيقول: "ومن علاماته [أي الإنسان الكامل] تمكنه من الاجتماع بمن شاء من الخلق الأحياء منهم والأموات متى عينه الحق له"[١].

---

(١) **مفتاح الغيب**: ١٠٣.

(٢) **معجم اصطلاحات الصوفية**، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م: ٥١.

(٣) **مفتاح الغيب**: ١٢٥.

(٤) **فصوص الحكم لابن عربي**، تعليق: أبو العلا عفيفي: ٤٨.

(٥) المصدر السابق: ٤٩.

(٦) **مفتاح الغيب**: ١٣٨-١٣٩.

وهو يستند في هذا إلى تأويله للآية الكريمة: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾[٢] فلو لم يكن النبي قادراً على الاجتماع بمن شاء؛ لما أمر بسؤال السابقين من الرسل، فيقول: "فإنه لو لم يتمكن من الاجتماع بمن أمر الرسول منه ما أمر"[٣].

ب- **الوظيفة العرفانية:** إذا تحقق الكامل بصفات الحق وصار اسم الحق اسمه وصفته صفته؛ كان له أن يأخذ العلم مباشرة عن حضرة الثبوت، بل يصبح عالماً بما يرتسم في نفس الحق، كما يقول القونوي: "يصير مرآة لنفس الارتسام الأزلي الإلهي"[٤].

ويقول: "وأما الكمَّل والأفراد فإن توجههم إلى الحق تابع للتجلي الذاتي الحاصل لهم والموقوف تحققهم بمقام الكمال على الفوز به، وأنه مثمر لهم معرفة تامة جامعة لحيثيات جميع الأسماء والصفات والمراتب والاعتبارات ... فلهذا لا يتأخر عنهم في الإجابة، أعني الكمل ومن شاء الله من الأفراد من أهل الاطلاع على اللوح المحفوظ"[٥]. وبهذا يشير إلى أن مقام المعرفة هو (مقام المطاوعة)، تكون نتيجته الاطلاع على العلم الإلهي في اللوح المحفوظ، وهناك (مقام كمال المطاوعة) وهو المقام الذي خص به القونوي أستاذه ابن عربي، وصاحب هذا المقام لا يكون مستجاب الدعاء فيما يطلب فقط، بل فيما يريد أيضاً، يقول القونوي: "إن ثمة من يتوقف وقوع الأشياء على إرادته وإن لم يدعُ ولم يسأل الحق في حصوله"[٦].

ت- **الوظيفة الأخلاقية:** إن استخدام لفظة (الكامل) مضافة إلى الإنسان يشير إلى دلالة أخلاقية من الناحية اللغوية للكلمة، وإذا كان القرآن هو الكتاب الجامع لجميع صفات الحق، والإنسان الكامل مرآة الحق، والإنسان الكامل هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمن النتائج المسلم بها أن تتصف الوظيفة الأخلاقية للإنسان الكامل بأول الأبعاد الوجودية وهي مرآة إرادة الله تعالى.

ثم يحدد القونوي الطريقة التي يموت بها الإنسان الكامل على ثلاثة أوجه:

---

(١) **مفتاح الغيب**: ١٤٠.

(٢) سورة الزخرف:٤٥

(٣) **صدر الدين القونوي وفلسفته الصوفية**، نقلاً عن شرح مفتاح الغيب، ورقة رقم(١٩٥): ٢٣٦.

(٤) **صدر الدين القونوي وفلسفته الصوفية**، نقلاً عن رسالة القونوي في الرد على نصير الدين الطوسي، ورقة رقم(٧٩): ٢٣٩.

(٥) **صدر الدين القونوي وفلسفته الصوفية**، نقلاً عن النصوص بنهاية مفتاح الغيب: ٢٣٩.

(٦) **المصدر السابق**: ٢٤٠.

الوجه الأول: عندما يمتلئ الوعاء القابل للمدد الإلهي الحافظ لبقاء الكامل، ويصبح غير قادر على قبول هذا المدد، ويفقد استعداده لقبوله، يكون هذا إيذاناً بانتقال المدد إلى إنسان آخر، وهو موت الإنسان الكامل الذي يعني في الوقت نفسه الحياة لغيره الذي انتقل إليه المدد الإلهي.

الوجه الثاني: يموت الإنسان الكامل عندما تتغير طبيعة المدد الإلهي الذي به بقاؤه، فيأتي منافياً لما كان يتلقاه، فيمتنع عن قبوله، فيكون موته نتيجة لهذا التغير.

الوجه الثالث: يكون موت الإنسان الكامل ناتجاً عن حدوث غفلة توجب انقطاع المدد الإلهي، فتكون هذه الغفلة من نوع الأمر القاضي بموت الإنسان الكامل.

يقول القونوي عن موت الإنسان الكامل بأنه يكون بأحد أمور ثلاث: "إما بقطع المدد الذي به بقاء ذلك الموجود، لاطلاع المميت على امتلاء وعاء استعداده وقبوله، فينتقل ذلك المدد إلى غيره فيصير عيد امداد ذلك الغير هو عين قطع ذلك المدد منه فيهلك، وقد يكون الهلاك بالإمداد المنافي بواسطة مسلط أو بغير واسطة؛ وقد يكون بغفلة من الممد الكامل يوجب الإعراض وانقطاع الالتفات المقتضي للبقاء، وكذا من دون الكامل من الأئمة والأوتاد والأبدال بالنسبة إلى من هو دونه وتحت دائرته"[١].

وموت الإنسان الكامل عند القونوي لا يحدث إلا طبقاً لإرادته الخاصة؛ لأنه لا قدرة لأحد أن يميته غير الله، فموته باختياره، فيقول: "لا يموت إنسان في العالم إلا والحق يميته بإنسان، أي يجعل سبحانه سبب موته إنساناً آخر لا محالة، تباعدا من حيث الصورة أم اقتربا–إلا الكامل– فإنه لا قدرة لأحد عليه إلا لله تعالى، وموته باختياره"[٢].

وحتى لا يظن بعضهم بإمكانية تعارض إرادة الإنسان الكامل مع الإرادة الإلهية عندما يعمل لاختيار الموت فيقول: "وما إرادة الكامل إلا مرآة إرادة ربه التي تعينت في عمله منذ الأزل، بل إن الكامل هو مرآة الحضرتين الإلهية الكونية"[٣].

ونظراً لأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الأكمل على الحقيقة، فلا عجب أن يختار الرفيق الأعلى وهو على فراش الموت، لأنه أكمل أفراد الإنسان الكامل كما يعتقد القونوي وابن عربي من قبله.

---

(١) **النفحات الإلهية**، صدر الدين القونوي، تصحيح: محمد خواجوي، انتشارات مولى، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ، النفحة(٢٩): ١٤٦.

(٢) **المصدر السابق**:١٤٦.

(٣) المصدر السابق، نقلاً عن عن: النفحات الإلهية: ٢٢٦.

ورغم أن نظرية القونوي في الإنسان الكامل قد بلغت أعلى مستوى من التكامل من الناحية الفلسفية، إذ يمتاز بخصائص ينفرد بها دون غيره؛ إلا أن المستشرق (نيكلسون) بالغ حين نسب إلى الجيلي أنه أول من عمَّق هذه النظرية وصاغها صياغة متسقة[1].

المطلب الثالث: الإنسان الكامل عند عبد الكريم الجيلي[2]

لقد كرَّس الشيخ عبد الكريم الجيلي حياته وهو يشرح فكرة (الإنسان الكامل) حيث ألف كتابه بهذا العنوان (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) ولا بدّ من الإشارة هنا إلى مسألة مهمة اتخذها الجيلي أرضية لفلسفته، وهي الاستناد إلى الكتاب والسنّة في كل ما أجراه الله تعالى على لسانه في كتاباته، وهو يشرح مفهوم (الإنسان الكامل) من "منطلق فلسفي موضحاً العلاقة بين الحق والخلق، بين الوحدة الحقيقة والكثرة الخلقية أو ما يسميه بمنطق آخر (وحدة الذات)، والتي أكمل تجلياتها بالطبع في الإنسان عموماً، وخصوصاً هو النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه، وهو في نظره أكمل تجلي أو مرآة أو مظهر من مظاهر الذات الإلهية بكاملها من حيث أفعالها وأسمائها وصفاتها"[3].

يقول الجيلي: "إن أفراد هذا النوع الإنساني كل واحد منهم نسخة للآخر بكماله لا يفقد في أحد منهم مما في الآخر شيء إلا بحسب العارض، كمن تقطع يداه ورجلاه، أو يخلق أعمى لما عرض له في بطن أمه، ومتى لم يحصل من العارض فهم كمرآتيْن متقابلتين يوجد في كل واحد منهما ما يوجد في الأخرى، ولكن منهم من تكون الأشياء فيه بالقوة، ومنهم من تكون فيه بالفعل وهم الكمَّل من الأنبياء والأولياء، ثم إنهم متفاوتون في الكمال فمنهم الكامل والأكمل، ولم يتعين أحد منهم بما تعين به محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الوجود من الكمال الذي قطع له بانفراده فيه، شهدت له بذلك أخلاقه وأحواله وأفعاله وبعض أقواله، فهو الإنسان الكامل والباقون من الأنبياء

---

(١) مادة: **الإنسان الكامل**، بحث بدائرة المعارف الإسلامية، نيكلسون:٣/٤٨-٥٠.

(٢) **عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي**: نسبة إلى قرية جيلان بالعراق، ولد سنة ٧٦٧ وتوفي سنة ٨٢٠ عشرين وثمانمائة، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، من كتبه: الإنسان الكامل في معرفة الاواخر والاوائل، والكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ومراتب الوجود، وحقيقة اليقين، وله قصيدة طويلة تسمى: الدرة العينية في الشواهد الغيبية.

(٣) **مفهوم الإنسان الكامل في الفكر الصوفي**، بحث لناجم مولاي، نشره في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السابع جانفي ٢٠١٢م: ١٤١.

والأولياء والكمَّل صلوات الله عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل، ومنتسبون إليه انتساب الفاضل إلى الأفضل"[١].

وهنا نجد اشتراكاً بين ابن عربي والجيلي في جانب من "مدلولات (الكامل) وعلى الصعيد الأنطولوجي الميتافيزيقي، فهو يرى أن الحقائق الوجودية الحقيقية والخلقية موجودة في كل إنسان بالقوة، وفي الإنسان الكامل بالفعل، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي حمل أمانة هذه الحقائق فكان خليفة الله في أرضه وخاتماً على مملكته، وفي هذا المعنى يرد قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (فإن الله تبارك وتعالى خلق آدم على صورته)[٣]، وهذا كله نجد أن منطلقه هو شرح لاسم الله[٤]".

كما يتضح لنا أن عبد الكريم الجيلي كان متأثراً في كثير من جوانب نظريته في الإنسان الكامل بصدر الدين القونوي خصوصاً عندما يقول: "المرتبة الأربعون من مراتب الوجود هي الإنسان الكامل، وبه تمت المراتب وكمل العالم، وظهر الحق تعالى لظهوره الأكمل على حسب أسمائه وصفاته، فالإنسان أنزل الموجودات مرتبة في الوجود وأعلاهم مرتبة في الكمالات... وقد بيَّناه أنه الجامع للحقائق الحقية، والحقائق الخلقية، جملة وتفصيلاً، حكماً ووجوداً، بالذات والصفات، لزوماً وعرضاً، حقيقة ومجازاً... فإنسان هو الحق، وهو الذات، وهو الصفات، وهو العرش، وهو الكرسي، وهو اللوح، وهو القلم، وهو المِلَك، وهو السموات وهو الأرضون وما فيها، وهو العالم الدنيوي وهو العالم الأخروي، وهو القديم، وهو الحادث، فلله درُّ مَن عرف نفسه معرفتي إياها، لأنه عرف ربه معرفته لربه"[٥].

ومنطلق هذا كله عند الجيلي هو شرحه لاسم الله تعالى، بدليل أن كل ما له علاقة بالإنسان هو في الأصل الله، وهو منسوب إليه بطريق المجاز، فعلمه مثلاً علم الله بطريق الملك والتحقيق، قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٦].

---

(١) **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م: ٢٠٧.

(٢) سورة البقرة:٣٠.

(٣) رواه **البزار في مسنده** برقم: (٧٨٦٥)، عَن أبي هُرَيرة رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قال: (إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، وَلَا يَقُلْ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ).

(٤) **مفهوم الإنسان الكامل في الفكر الصوفي**، ناجم مولاي: ١٤١.

(٥) **مراتب الوجود (وبيان حقيقة ابتداء كل موجود)**، عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، مخطوطة في جامعة الملك سعود، تحت رقم (٣٤٩٠): الورقة: ٢١.

(٦) سورة الصافات:٩٦.

ويذكر الجيلي أنه قد خصص مصطلح (الإنسان الكامل) في جميع كتبه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه يرى ان هذه الإشارات وتلك العبادات لا يمكن أن تسند إلى غيره صلى الله عليه وسلم لأنه متفرد من بين الكمَّل بالخلق والأخلاق، فيقول: "ولكن مطلق لفظ (الإنسان الكامل) حيث وقع في مؤلفاتي إنما أريد به محمداً صلى الله عليه وسلم، تأدباً بمقامه الأعلى ومحله الأكمل الأسنى، ولي في هذه التسمية له إشارات وتنبيهات على مطلق مقام الإنسان الكامل لا يسوغ إضافة تلك الإشارات، ولا يجوز إسناد تلك العبادات إلا لاسم محمد صلى الله عليه وسلم، إذ هو الإنسان الكامل بالاتفاق، وليس لأحد من الكمَّل ماله من الخلق والأخلاق"[١].

ويؤكد هذا المعنى الشيخ محمد متولي الشعراوي فيقول: "الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو النموذج الذي صنعه الإله ليكون قدوة لخلق الله في حركة الحياة، الإنسان كما نعلم هو خليفة الله في الأرض، وخلقه الله لا لحاجة إليه، ولكن لإبراز تجليات صفاته فيه، فقُدرةُ القادر لا تظهر إلا في مقدور، وحكمة الحكيم لا تظهر إلا في محكم"[٢].

ويقول الجيلي: "اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره"[٣].

والمقصود بالقطب هنا هو القطبية الكبرى: وهي "مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون إلا لورثته، لاختصاصه عليه السلام بالأكملية، فلا يكون خاتم الولاية قطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة"[٤].

كما يشترك الجيلي مع ابن عربي في التفريق بين الإنسان الكامل والإنسان الحيواني الذي يشبهه في المظهر فقط، والكمال بالنسبة للإنسان يتفاوت من فرد إلى آخر حسب العناية الإلهية.

ويذكر الجيلي كيف يقابل الإنسان الكامل الحقائق العلوية والسفلية قائلاً: "اعلم أن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته"[٥].

---

(١) **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، للجيلي: ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٢) **الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم**، محمد متولي الشعراوي، دار الندوة، الاسكندرية (د.ت): ١٢.

(٣) **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، للجيلي: ٢١٠.

(٤) **معجم اصطلاحات الصوفية**، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م: ١٦٢.

(٥) **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، للجيلي: ٢١١.

ثم يقول: "ثم اعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي، فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات، ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل؛ فمثاله للحق مثال المرآة التي لا يَرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه إلا بمرآة الاسم (الله) فهو مرآته، والإنسان الكامل أيضاً مرآة الحق، فإن الحق تعالى أوجب على نفسه أن لا تُرى أسماؤه ولا صفاته إلا في الإنسان الكامل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١] يعني قد ظلم نفسه بأن أنزلها عن تلك الدرجة، جهولاً بمقداره لأنه محل الأمانة الإلهية وهو لا يدري"[٢].

الخاتمة وتشمل أهم النتائج:

بعد هذه الدراسة حول الإنسان الكامل، نرى أن هذا الاصطلاح لم يحظَ بالشهرة التي حظيت بها الأسماء الأخرى: كالولي، والقطب، والغوث، رغم أنه هدف محوري عند الصوفية، وهو روح العالم، ونسبته إليه كنسبة الروح إلى البدن.

وأخيراً أشكر الله تعالى على ما هيَّأ من إتمام هذا البحث، وقد خلص الباحث إلى أهم النتائج التالية:

١- أن القرآن الكريم لما كان كاملاً مكملاً لتضمنه كمال العقيدة وكمال العبادة وكمال الأخلاق، فإن الإنسان إذا تحلى بصفات الكمال هذه يصبح إنساناً كاملاً، وقد تجمَّعت صفات الكمال برمَّتها في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لذلك قالت عائشة: كان خلُقُه القرآن.

٢- أن أول من أدخل مصطلح (الإنسان الكامل) إلى الفكر الصوفي الإسلامي هو محيي الدين بن عربي.

٣- وأن فكرة (الإنسان الكامل) محورية عند ابن عربي في كتبه ومؤلفاته حيث يجعله أساس تعاليمه، والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية.

٤- أن هناك مرادفات كثيرة لمصطلح (الإنسان الكامل) أهمها: القطب، والحقيقة المحمدية، والولي، والنسخة الجامعة، والمفيض، ومركز الدائرة، وروح العالم، ومرآة الحق والحقيقة.

---

[١] سورة الأحزاب: ٧٢.

[٢] **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، للجيلي: ٢١٢-٢١٣.

٥- وأن الإنسان الكامل عند ابن عربي وغيره هو الجامع للأسماء والصفات الإلهية، والحقائق الكونية، وأنه روح العالم، وله الوساطة بين الحق والخلق؛ لإيصال الفيض الإلهي إلى الخلق، والوصول بالخلق إلى الحق.

٦- وأن نشأة الإنسان الكامل عند القونوي رهن بطهارة الأصل وكمال الرتبة، إذ يتنقل بالتدريج في الرتبة من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى، فيزهر أولاً في أكمل نوع من أنواع النباتات ثم يتناوله أحد الأبوين، ليتحول هذا الغذاء إلى دم ثم مني ويرتقي من الرتبة النباتية والجمادية إلى الرتبة الحيوانية، ثم من الصلب إلى الرحم، فيكون إيذاناً بظهوره ويصبح إنساناً كاملاً في الأربعين من عمره.

٧- وأن وفاة الإنسان الكامل تكون باختياره كما يقول القونوي، وأنه يحدث بثلاثة طرق: بتغير طبيعة المدد الحافظ لبقائه، أو بامتلاء الوعاء القابل للمدد الإلهي مما يعوقه عن الاستمرار فينتقل المدد لإنسان آخر، أو نتيجة حدوث غفلة توجب انقطاع المدد الإلهي.

٨- أن عبد الكريم الجيلي يرى أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل والباقون من الأنبياء والأولياء والكمَّل ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل، وأن اصطلاح (الإنسان الكامل) في جميع مؤلفاته يعني به محمداً صلى الله عليه وسلم.

٩- وأن الجيلي وغيره يشتركون مع ابن عربي في أن الحقائق الوجودية الحقيقية والخلقية موجودة في كل إنسان بالقوة، وفي الإنسان الكامل بالفعل.

١٠- وأن الجيلي يوافق ابن عربي في تفريقه بين الإنسان الكامل والإنسان الحيواني الذي يشبهه في المظهر فقط، والكمال بالنسبة للإنسان يتفاوت من فرد إلى آخر حسب العناية الإلهية.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المصادر والمراجع:

١- **الإنسان الكامل في الإسلام، دراسات ونصوص غير منشورة** ألف بينها وترجمها وحققها الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

٢- **الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم،** محمد متولي الشعراوي، دار الندوة، الاسكندرية (د.ت).

٣- **الإنسان الكامل في الفكر الصوفي: عرض ونقد**، للدكتور لطف الله بن عبد العظيم خوجة، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٤- **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، الشيخ عبد الكريم إبراهيم الجيلي، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م.

٥- **الإنسان الكامل**، تأليف الأستاذ مرتضى المطهري، ترجمة جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٦- **صدر الدين القونوي وفلسفته الصوفية**، للدكتور إبراهيم إبراهيم محمد ياسين، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.

٧- **عودة الواصل: دراسات حول الإنسان الصوفي**، سعاد الحكيم، مؤسسة دندرة للدراسات، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٨- **الفتوحات المكية**، محي الدين بن عربي، دار الكتب العربية الكبرى، مصر (د.ت).

٩- **فصوص الحكم**، محيي الدين بن عربي، تعليق:أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٦٥هـ١٩٤٦م.

١٠- **الفلسفة العربية الإسلامية: الكلام والمشائية والتصوف**، د. ارثور سعدييف، د.توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

١١- **مجموعة رسائل معرفية، أو رسائل القيصري**، داود بن محمود القيصري، تعليق: عاصم إبراهيم الكيالي، كُتَّاب ناشرون، بيروت، (د.ت) .

١٢- **مراتب الوجود (وبيان حقيقة ابتداء كل موجود)**، عبد الكريم إبراهيم الجيلي، مخطوط في جامعة الملك سعود، تحت رقم (٣٤٩٠).

١٣- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، علي بن (سلطان) محمد القاري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

١٤- **معجم اصطلاحات الصوفية**، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

١٥- **مفتاح الغيب**، لأبي المعالي صدر الدين القونوي، وشرحه: مصباح الأنس لمحمد بن حمزة الفناري، تحقيق: محمد خواجوي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٦- **مفهوم الإنسان الكامل في الفكر الصوفي**، بحث لناجم مولاي، نشره في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السابع جانفي ٢٠١٢م.

١٧- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

النفحات الإلهية، صدر الدين القونوي، تصحيح: محمد خواجوي، انتشارات مولى، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ